

على هامش الجامعة: عن الحراك الطلابي

سنان أنطون

ترتبط المؤسسات الأكاديمية ببنية الدولة الاقتصادية والسياسية وهياكلها، وبالمنظومة المعرفية السائدة في المجتمع. ومن البديهي أنها ليست، ولم تكن يوماً، واحات معرفية مستقلة، أو منارات للعلم والتنوير فحسب، بل هي، عموماً، مؤسسات تمارس دورها في إعادة إنتاج النخب الحاكمة، وتمدّها وتمدّد الدولة التي تسيطر عليها بكوادرها ومواردها البشرية. وتكتسب هذه الحقائق أهمية مضاعفة في دول الاستعمار الاستيطاني، ففي الولايات المتحدة، مثلاً، ارتبط تأسيس الجامعات بالاستيلاء على أراضي السكان الأصليين وتهجيرهم، إذ شرّع قانون موريل (1862) منح أراضٍ "فيدرالية" لبناء كليات وجامعات لتنمية الزراعة والصناعة، وقد سُلبت تلك الأراضي من السكان الأصليين. وتخرّجت النخب والشرائح التي تلقت تعليمها في هذه الجامعات وأخذت مواقعها في منظومة أمنت في سلب الأرض وإخضاع السكان الأصليين وإقصائهم. إضافةً إلى الأراضي المسلوقة التي أقيمت عليها عشرات الكليات والجامعات، منح القانون الفدرالي الجامعات حقوق احتكار أراضٍ إضافية بمساحات شاسعة، مسلوقة أيضاً، ما زالت تدرّ ملايين الدولارات إلى اليوم.

تعاونت الجامعات الأمريكية أثناء الحرب العالمية الثانية مع وزارة "الدفاع"، البنتاغون، لتصنيع الأسلحة، وساهمت جامعات مثل كولومبيا وپرينستون وشيكاغو في البحوث التي ساعدت في تطوير القنبلة النووية. وأثناء الحرب الباردة أصبحت وزارة الدفاع الأمريكية أكبر داعم لدراسات العلوم، وتوثقت الروابط وازداد التخاذم مذكاً والأرقام تثبت ذلك، على سبيل المثال، في العام 2022 حصلت جامعة جونز هوبكنز على 1.4 بليون دولار من البنتاغون! بينما منحت 14 جامعة أخرى 100 مليون دولار لكل واحدة منها.

لكن الجامعات هي أيضاً حيز يقاوم فيه الطلاب والأساتذة، وإن كانوا أقلية في معظم الأحيان، الإطار السياسي والفكري السائد ويحاولون خلخلة وتفكيك المنظومة المعرفية السائدة، ونقد وكشف تورط الجامعات، مادياً ومعرفياً، بالنظام السياسي والاقتصادي المهيمن، ويصقلون ويمارسون نقداً اجتماعياً ومقاومة سياسية تهدف إلى التحرر والتغيير وتنتج خطاباً مضاداً. وهناك أمثلة على حركات وانتفاضات طلابية انطلقت من الجامعات وكانت لها آثارها الفكرية والسياسية والاجتماعية خارج جدران الجامعات وقاعاتها، من احتجاجات الطلاب في الجامعات الأمريكية لمساندة حركة الحقوق المدنية ومعارضة حرب فيتنام، وصولاً إلى مظاهرات الطلاب في فرنسا في أيار 1968. وبعدها في العام 1978 حين أسس طلاب في جامعة هارفارد نواة حركة التضامن مع شعب جنوب أفريقيا ومناهضة نظام التفرقة العنصرية والمطالبة بسحب الاستثمارات، انتشرت الحركة في جامعات أخرى واتسعت نشاطاتها في الثمانينيات وأجبرت عدداً من الجامعات على سحب استثماراتها من جنوب أفريقيا، واستمرت بنشاطها حتى سقوط نظام جنوب أفريقيا العنصري في العام 1994. ولعل من المهم ذكرها هنا لأنها أحد روافد

حركة الاحتجاج التي اجتاحت الجامعات بعد طوفان الأقصى، ومن الأمثلة التي يحتذى بها، إذ كثير من الأساتذة الذين انخرطوا، نساءً ورجالاً، في دعم الاحتجاجات الطلابية والاشتراك فيها السنة الماضية قد اكتسبوا خبرات تنظيمية وتعرّفوا عن كتب على أساليب تعنت وتواطؤ إدارات الجامعات أثناء سنيّ دراستهم، بينما نشطت الأجيال الأصغر في معارضة غزو واحتلال العراق ودعم حركة المقاطعة الثقافية والأكاديمية. أما جيل الطلاب الذين انتفضوا بعد السابع من أكتوبر وأقاموا مخيمات الاعتصام فقد كانت "حياة السود مهمّة" قد أثّرت بشكل كبير على وعيهم السياسي في المدرسة الثانوية.

تختلف جامعة نيويورك عن معظم الجامعات الأمريكية بكونها مجموعة بنايات في مانهاتن، تجاورها محالّ وعمارات سكنية، لا بوابة رئيسة ولا جدار أو أسوار تفصلها عن محيطها، كانت هناك في الماضي مساحات محددة داخل بنايات الجامعة مخصصة للتظاهر (سُلّم كبير في مدخل إحدى البنايات الرئيسة، وكان الطلاب يتظاهرون فيه لأمر شتى من بينها التنديد بالغزو الروسي لأوكرانيا وأحداث أخرى قبل ذلك) لكنه أحيط بحبال وأغلق في أكتوبر 2023 دون تفسير. ومنذ الأسابيع الأولى التي أعقبت بدء الإبادَة غيّرت إدارة الجامعة القوانين الداخلية لقمع أيّ شكل من أشكال التضامن مع فلسطين، ومنعت الطلاب من ممارسة حقهم في حرية التعبير والتظاهر، وحاولت بشتى الطرق قمع وإسكات وإخافة الطلاب (الذين تحركوا لمساندة غزة)، والتضييق وتشديد العقوبات، فمنعت إصاق الإعلانات والبيانات على الجدران واستدعت عدداً من الطلاب والأساتذة للتحقيق معهم بعد تقديم شكاوى ضدّهم بتهمة "معاداة السامية".

ولمساندة ودعم الطلاب، أسّس عدد من الأساتذة في جامعة نيويورك في 18 تشرين الأول/ أكتوبر 2023 مجموعة "أساتذة من أجل العدالة في فلسطين"، وقّع على بيانها الأول أكثر من 210 أستاذ، ومن بين مبادئها دعم حركة التحرر من الاستعمار في فلسطين ودعم حركة المقاطعة. وقد توالى تأسيس تجمّعات مشابهة في كليات وجامعات أخرى في الولايات المتحدة، تضم الشبكة الوطنية الآن 250 مجموعة، واستلهم الاسم من "طلاب من أجل العدالة في فلسطين" التي تأسست أولى مجموعاتهما في بدايات التسعينيات في جامعة بيركلي في كاليفورنيا، وانتشرت بعدها وازداد نشاطها وحضورها في الجامعات الأمريكية في العقد الأخيرين.

ليست مطالب الأساتذة والطلاب بسحب الاستثمارات من شركات الأسلحة والشركات التي تتعامل مع "إسرائيل" والمتورطة في الاحتلال، والآن الإبادَة (سيسكو، لوكهيد مارتن، كاتربلر، جنرال إلكتريك) وليدة الساعة، بل تعود إلى العام 2005 وبدء وانتشار حركة المقاطعة الثقافية والأكاديمية، وبعد افتتاح فرع جامعة نيويورك في "جامعة تل أبيب" في العام 2013 بدأ النشاط والدعوات لإغلاقه، وفي العام 2018 صوّت مجلس طلبة الجامعة على سحب الاستثمارات من "إسرائيل"، لكن الجامعة لم تستجب، وعادت هذه المطالب إلى الواجهة وبقوة بعد بدء حرب الإبادَة.

بعد قراءة أشعار من فلسطين وغزة اشترك فيها أساتذة وطلاب في باحة مكتبة الجامعة، غيّرت الإدارة قوانين الدخول إلى المكتبة، ولم تعد تسمح باصطحاب الضيوف. كما استدعى العمداء الأساتذة

الذين شاركوا في القراءة لتبنيهم! وغيّرت لائحة قوانين السلوك في صيف 2024 دون استشارة مجلس الأساتذة، لتكون "الصهيونية" أكثر من أيديولوجية، بل مقولة محمية، ويمكن لمن يعتنقونها إذا شعروا بالتهديد أو التفرقة أن يلجأوا إلى القوانين التي سُنّت لمحاربة العنصرية. وقد حذت جامعة هارفارد حذو جامعة نيويورك في هذا السياق في شهر كانون الثاني 2025.

أقيم أول مخيم للتضامن مع غزة في جامعة نيويورك في باحة "غولد" أمام كلية الأعمال في فجر يوم 22 نيسان 2024 طوّق أمن الجامعة الباحة بعد ساعات، ووجّهت إدارة الجامعة تحذيراً للطلاب، وأمرتهم بإزالة الخيام، ورفضت التفاوض معهم أو مع أساتذة يمثلونهم حول مطالبهم. وفي المساء استدعت الجامعة شرطة نيويورك (وهذه أول مرة تحدث في تاريخ الجامعة) التي حضرت مدججة وبأعداد كبيرة، وأحاطت المنطقة وهاجمت المخيم بشراسة، وفككت الخيم ملقياً القبض على 122 أستاذاً وطالباً بتهمة التجاوز على الأملاك الخاصة! بعد اقتحام المخيم وإزالته بأربعة أيام، أقام الطلاب مخيماً ثانياً في ممر عام بين شارعين بجانب بناية باولسون (والبناية تحمل اسم أحد أعضاء مجلس أمناء الجامعة ومن كبار المتبرعين لحملة ترامب). واستمر المخيم الثاني حتى صبيحة الثالث من أيار حين غزته شرطة نيويورك بالتنسيق مع إدارة الجامعة، وأزال الخيام، واعتقلت الطلاب.

جرت العادة في كليتنا (وهي واحدة من 11 كلية في جامعة نيويورك، وتفخر بتشجيعها الفكر النقدي والممارسة المقتزنة به) بعد كل حدث مفصلي أو أزمة، في البلاد أو العالم، على إجراء جلسة حوار نقدي مفتوحة في مسرح الكلية، يشترك فيها ثلاثة طلاب وثلاثة أساتذة، يعقبها نقاش مفتوح، ويحضرها عدد كبير من الأساتذة والطلاب لمقاربة الحدث وتحليله. غير أن السنة الدراسية الماضية كانت استثناءً، بالطبع، إذ فعلت إدارة الكلية، نزولاً عند أوامر رئاسة الجامعة، كل ما بوسعها لكي تقمع إمكانية إقامة أيّة فعالية رسمية يُجرى فيها حوار نقدي حول حرب الإبادة ضد غزة، وتراوحت الحجج بين الرغبة في الحفاظ على "الكياسة" (وهذه المفردة تعود إلى الواجهة عادة أثناء التظاهرات والحراكات) و"عدم تعميق الانقسامات" وإثارة التوتر. ولـ"حساسية الموضوع"، والتخوف من اعتداءات وتوترات، أو عدم توفر المسرح، كُنث قد طلبت الاجتماع بالعمادة مع زميلة وطلبنا تخصيص اجتماع الهيئة التدريسية الشهري لمناقشة الإبادة وتدمير البنية الأكاديمية في غزة، والتضييق الذي تمارسه إدارة الجامعة ضد الطلاب الذين يعبرون عن تضامنهم مع أهل غزة ورفضهم لحرب الإبادة. قيل لنا إن الاجتماعات الدورية ليست لمناقشة أحداث سياسية، ويمكنكم أن تجتمعوا في قاعة وتناقشوا الموضوع بحرية. قلت لها: إن الإبادة ليست "حدثاً" وهي مستمرة منذ أشهر، ويجدر بنا على الأقل أن نتضامن مع زملائنا من الأساتذة الذين تُقصف جامعاتهم ويُقتلون الآن. بعد شهور، أرسلنا خلالها الكثير من الرسائل والتقينا مع العمادة مرة أخرى، نجحنا في الحصول على الموافقة، وبعد عراقيل هدفها عدم إجراء الفعالية في المسرح، نجحنا في تخطي ذلك، لكن الفعالية وُضعت في الأسبوع الذي يسبق الامتحانات، وتأخر إعلانها على موقع الكلية (لأسباب تقنية!) ولم يُسمح لمن لا يحمل هوية

الجامعة بالحضور، وهي سياسة كانت الجامعة قد اتبعتها لتقليص حضور جمهور أوسع طبعاً. وقبل الموعد بأيام طلب أحد معاوني العميدة أن يلتقي بي وسألني بحذر:

- "أردت أن أسألك عن الفعالية التي تنظموها حول الوضع في غزة الأسبوع القادم."

- "تقصد الإيادة في غزة."

- "نعم، نعم. بالطبع."

- "ما رأيك بوضع علامة استفهام بعد العنوان، ليصبح "الإيادة في غزة؟"

- "ولماذا نفعل ذلك؟"

- "قد يكون هناك طالب أو طالبة يهودية من الذين يقفون "على الحدود" ولم يحسموا الأمر بعد، وهم يتأثرون بما يسمعونه في البيت ومن العائلة، وبالإمكان كسبهم وإقناعهم، لا نريدهم أن ينفروا وأن نخسرهم."

- "نحن في شهر نيسان والإيادة واضحة، لا يهمني، ولست معنياً بتغيير رأي هؤلاء الذين ما زالوا ينكرون ذلك."

- "طبعاً. مفهوم."

لم تكن لديّ يوماً صورة مثالية عن الحقل الأكاديمي، لكن السنة الماضية كشفت للعالم أجمع النفاق والجبن والتخاذل والتواطؤ على الصعيد المؤسسي وعلى الصعيد الفردي، فكم من باحث وباحثة تحفل أبحاثهم وسيرهم المهنية بمفردات ومقولات "الافتكاك من الاستعمار" و"ما بعد الاستعمار" و"تاريخ الإيادة" ولكنهم لم ينبسوا بكلمة عن غزة!

كانت هذه ثاني مرة أُعتقل فيها، فالأولى كانت في أواخر التسعينيات في العاصمة، واشنطن، حين اشتركت في مظاهرة واعتصام أمام البيت الأبيض ضد الحصار الاقتصادي الذي كان مفروضاً على العراق آنذاك. يخجل المرء من ذكر اعتقال بسيط دام لساعات معدودة، بينما يقبع الآلاف لسنين طويلة في السجون، لكن السياق يقتضي ذلك. ويا له من فرق بين أن يُقبض على المرء في حيّز عام لمخالفته القوانين، وبين أن يُعتقل داخل الحرم الجامعي وبطلب من إدارة الجامعة، دون أن يخالف أيّاً من القوانين، لا لشيء إلا لأنه يحمي طلابه من عنف الشرطة!

ليست شرطة مدينة نيويورك شرطة عادية، فهي معروفة بشراستها وعنصريتها ضد السود والمهاجرين، وضد المسلمين والعرب، بالذات بعد الحادي عشر من أيلول/سبتمبر، حين تعسّرت أكثر من ذي قبل 2001 بعد عودتي من السفر قبل سنين، كنت أقف بانتظار حقيبتني في مطار "جي إف كي" في نيويورك حين مرّ بقربي رجل أمن يقود كلباً كان يلهث وهو يدور حول شريط الحقائق ويشمّها.

سمعت الرجل يتحدث مع الكلب بالعبرية، وحين ذكرت هذا لإحدى زميلاتي اتهمتنني بالبارانويا ومعاداة السامية. بعدها بأشهر ذكرت تقارير صحافية أن شرطة مدينة نيويورك كانت قد بدأت تتعاون مع الجيش "الإسرائيلي"، وأن هناك مكتب لشرطة مدينة نيويورك في "تل أبيب" ويتدرب عناصر شرطة مدينة نيويورك مع الجيش "الإسرائيلي" منذ سنوات. اختارت شرطة نيويورك إرسال وحدة مختصة بمكافحة "الإرهاب" لإزالة المخيم وهي وحدة سيئة الصيت سُجّلت ضدها شكاوى لتعاملها الوحشي ضد المتظاهرين في حركة "حياة السود مهمة" قبل سنوات.

بعد إنزال الأساتذة والطلبة المعتقلين من الحافلات التي نقلتنا إلى مركز الشرطة في جنوب مانهاتن، أوقفونا في طوابير أمام مركز الشرطة لتسجيل أسمائنا وإدخالنا إلى المعتقل. أثناء الانتظار بدأ أحد الطلاب يهتف "Free Palestine" وانضم إليه البقية وتعالى الهتاف، وتبعته شعارات أخرى كانت قد تكررت في المظاهرات والاعتصامات في الأشهر التي مضت. لم يكن هناك أحد باستثناء المعتقلين والشرطة، الذين وقفوا مذهولين، فمركز الشرطة في بقعة نائية في جنوب مانهاتن، فلمن ولماذا يهتف هؤلاء؟ كانت لحظة مؤثرة، كأن المتظاهرين أرادوا أن تسمعهم السماء.

طوال عقدين من التدريس في جامعتين في الولايات المتحدة الأمريكية، كنت أشعر، وما زلت، بالاعتراب، لكن الحراك الطلابي والتضامن مع غزة والوقوف ضد الإبادة وتجربة المخيمات كانت لحظات استثنائية. مثل المخيم الثاني الذي استمر لأيام قبل إزالته جامعة مثالية مصغرة وحررة بلا تراتبية، وتضمّن برنامجه اليومي، إضافة إلى الاحتجاج والتوعية، محاضرات ونقاشات، وقراءات شعرية، وموسيقى، حتى إن بعض الأساتذة أخذوا يصطحبون صفوفهم لزيارة المخيم.

في الأسبوع الأخير من فصل الخريف الدراسي 2024 اعتصم عدد من الطلاب والأساتذة أمام مكتب رئيسة الجامعة لمطالبة الجامعة بالوفاء بوعدتها بالكشف عن تفاصيل استثماراتها في شركات الأسلحة والشركات المتورطة والمتعاونة مع "إسرائيل"، إذ كانت قد وعدت في نهاية السنة الأكاديمية الماضية أن تقوم بذلك. أثناء الاعتصام ورّع عدد من الطلاب والأساتذة منشورات داخل باحة المكتبة تطالب بإغلاق فرع جامعة نيويورك في "تل أبيب"، وتتضمن معلومات عن الإبادة وتدمير البنية التحتية الأكاديمية في غزة. وقد انتقل المعتصمون بعد إجبارهم على الخروج من البناية إلى مدخل المكتبة واعتصموا أمامه، فاستدعت الجامعة شرطة نيويورك للمرة الثالثة لتعتقل اثنين من الأساتذة وعدداً من الطلبة. عاقبت الجامعة المتظاهرين، أساتذة وطلبة، بمنعهم من دخول بنايات الجامعة وبتعطيل العمل ببطاقات هوياتهم، ثم أصدرت عقوبات بفصل عدد من الطلبة لسنة كاملة.

كانت هناك حواجز حديدية أمام مكتبة الجامعة وحول المصاطب، حيث أقيم المخيم الثاني، تمنع الوصول إليها والجلوس عليها، وهناك حراس يقفون على مدار الساعة. أما باحة "غولد" التي كانت موقع المخيم الأول، فقد أقامت الجامعة حولها جداراً عالياً ونقطة حراسة وسيطرة تنظم الدخول إليها بعد تدقيق الهويات. في الأيام الأولى بعد وضع الجدار قام عدد من الطلاب بكتابة شعارات تسخر من "جدار الأبارتهايد" ووضع ملصقات "فلسطين حرة" و"اسحبوا الاستثمارات"، فضيغ باللون البنفسجي (لون شعار الجامعة) ونُصبت ثلاث كاميرات على علو شاهق تراقب المكان، بالإضافة إلى حراس على مدار الساعة. ولعل المضحك المبكي أن ما كُتب بخط أنيق وحروف كبيرة على الجدار هو: "مستقبلنا يتبلور". هذا في جامعة تعرّف نفسها على أنها "جامعة بلا جدران، تزيل الحدود بين قاعة الدرس وبين العالم الحقيقي"، لكنها تحولت إلى فضاء معسكر، وليس ذلك مفاجئاً فهي مؤسسة استعمارية، متورطة خطايا ومادياً في آلة الحرب الأمريكية-الإسرائيلية".

منذ السابع من أكتوبر وأنا أرّدد: "سقط القناع عن القناع". فقد أسقطت ردود الفعل إزاء الإبادة كل الأفتنة وأظهرت بشاعة هذا العالم وتوحش منظومته وتواطؤ الكثيرين، لكنها أظهرت ما يمكن التشبث به من التضامن والدعم الذي يبعث على الأمل، وتعلّمت الكثير من شجاعة طلابي ونضجهم وثباتهم، وتشرّفت بالوقوف معهم

